الفصل التاسع عشر

الدين والوطن

لم يكن في النية أن نعود بعد وضعنا فصل الدين والتربية إلى مثل ذلك الموضوع، ولكننا عثرنا في أحد أعداد مجلة "الموسوعات" الغراء التي تصدرها في القاهرة لجنة من أفاضل الكتاب المصريين بإدارة حضرة الفطن اللوذعي أحمد أفندي حافظ عوض علي بحث رائق في رابطة الدين لحضرة الأستاذ الألمعي الشيخ محمود أبو النصر: أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس. وقرأنا فيه شذرة ذات علاقة بموضوع الدين والوطن، والجامعة الوطنية، فآثرنا نقلها هنا للدلالة علي أن ذوي المدارك السامية الذين يعرفون حقيقة الدين، ويدركون ماهية الوطن يحكمون حكما صائبا عادلا: بأن اختلاف المذاهب لا يؤثر في الوطنية الحقة، ولا يجعل اختلافا بين العناصر التي يتألف منها سكان البلاد.

ونحن إنما عدنا إلى طرق باب هذا الموضوع الخطير، لأنه من أعظم المؤثرات علي تربيتنا العامة، وأكبر الأسباب في ما هو واقع من الانقسام العظيم بين عناصر الشرق. ولاسيما في بلادنا العثمانية، والمصرية التي أوقفتنا لخدمة هذا الكتاب.

ولا شك في أن كثيرين من قراء كتاب العلم والتربية لا يزالون يذكرون المقالات والفصول المطولة التي خصصناها فيما مضى، سواء في جرائد القِطر، أو مجلاته لدعوة الشرقيين عامة، والعثمانيين خاصة إلى الائتمار بأوامر الوطن

ونواهيه، ونبذ التعصب الديني الممقوت، واحتساب العثمانيين كلهم وطنيين علي السواء مع غض النظر عن المذهب الديني الذي هم فيه؛ لأن الوطن لا دخل له في المذهب، واختلاف الدين بين اثنين لا يمنعهما أن يكونا ولدي وطن واحد. ولقد عدنا إلى تلك الدعوة في فصل التربية والدين الذي تقدم إيراده في صدر هذا الكتاب، ونحن عائدون الآن إليها بلسان واحد. رجال المسلمين الأفاضل الذين يوقرون دينهم، ويحترمون شريعتهم، ويجلّون مذهبهم، ولكن ذلك لا يمنعه عن الاعتراف بالجامعة الوطنية، ووجوب نبذ التعصب المذهبي لخدمة الوطن والبلاد.

ونحن ننشر هنا الكلام الذي وقفنا عليه في مجلة "الموسوعات"، مؤملين أن يحل لدى مواطنينا في المنزلة السامية التي هو جدير بها، وأن يقتفي الكتبة آثار صاحبه الفاضل في تنوير أذهان العامة، وتبديد غياهب الجهل والتعصب؛ لأن أجل خدمة يؤديها الشرقي لبلاده في هذه الأيام التي كثر فيها أعداء الشرق وخصومه أن يعمل علي تأليف قلوب أبنائه، ويحضهم علي نبذ التعصب الذي أنتج التفريق والانقسام بينهم وكان سببا في تقويض أساس جامعتهم الوطنية، وتفريق كلمتهم المجتمعية.

أما قول الأستاذ فهو بمبناه الرائق ومعناه الشائق:

"دع كلا ودينه. دع المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله، والنصراني يقول بالأب والابن وروح القدس، (وإن كان لا يُري في الحقيقة غير إله واحد)، وخل إليهودي يوحد بالله سرا وعلنا ويعبده علي شريعة نبيه موسي، واتل إذا حمى وطيس الجدل "أنا أو إياكم لعلى هدى، أو في ضلال مبين". ثم قل إن جمعك بهم وطن" يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"، نحن وإن اختلفنا دينا أبناء وطن واحد.

فليجعل كل قوم دينهم رابطتهم الخصوصية أولا، ثم المرشد الأمين لسيرهم مع الغير، ثم لتجتمع طوائفنا أمة واحدة. فكما أن للدين علينا حقا فللوطن علينا حق، وللجنسية علينا حق، وللغتنا علينا حق، ونحن عن هذه الحقوق مسئولون أمام الله والناس وكفى به داعيا إلى وجوب الاتحاد بيننا. فلنتحد من هذه الجهة قلبا، ولسانا، ويدا كما اتحد غيرنا من الناس في خدمة بلادهم وإن اختلفوا مذهبا ومشربا. هذا هو الوطن مرتع الآباء، ومنبع السعادة والشقاء، وكلنا فيه شركاء متجاورون.

دخلنـــا أرضـــه فحنـــا علينـــا حنـــو المرضـــعات علـــي الفطـــيم

وارشـــقنا علـــي ظمـــأ زلالا ألـــذ مـــن المدامـــة للنـــديم

فهل أنتم فيه متفقون ولأمانتكم وعهدكم راعون؟. إذن لكنتم أمة واحدة، ولسعدتم كما سعدت تلك البلاد الغربية التي إذا ذكر اسم الوطن لدى أهلها انتبذوا اختلاف الأديان وراءهم ظهريا، واجتمعوا قلبا واحدا كأنما دينهم الوطنية ليس إلا. يبذلون في إعزازها الأنفس والأموال، ويجاهدون في سبيلها مجاهدة الأبطال، إن ماتوا فشهداء، وإن عاشوا فسعداء.

كـــم بـــين قـــوم إنمـــا نفقـــاتهم مـــال، وقـــوم ينفقـــون الأنفـــس

أترى هؤلاء أقل درجة عند الله من مجاهدي الحروب الصليبية مثلا. وعليه فإذا تعددت الأديان في أمة، وجاز أن يستند من وراء وحدة الدين إلى شيء آخر، فذلك الشيء هو وحدة الوطنية.

فليتدبر هذا الكلام الذين لا يزالون منا يذكرون الدين في إزاء الجنسية والمذهب قبل الوطنية، وليجعلوا نصب أعينهم، ولينقشوا علي صفحات قلوبهم قولا مؤداه: أن الدين لا دخل له في الجنسية، وأن العثماني عثماني، والمصري

مصري مسلما كان، أو مسيحيا، أو إسرائيليا. وإنما الكل أبناء وطن واحد، ورعايا راية واحدة، تجمعنا البلاد، وتضمنا اللغة، وتقربنا العادات، وتقيدنا التقاليد، فلا نجعلن الدين يأمر بحب الوطن والتفاني في خدمته سببا في سقوط الوطن، وضياعه. وعلي الله الاتكال.